معركة "علم حلفا"

وفشل روميل في اختراق خط العلمين

الفصل الحادي عشر

obeikandl.com

obeikandl.com

في أواخر أغسطس عام 1942 قام روميل بآخر محاولة من جانبه لاختراق الدفاعات البريطانية في خط العلمين تمهيداً لانطلاق قواته عبر عنق الزجاجة ما بين البحر المتوسط ومنخفض القطارة، (وهو الحاجز الذي أجبرها على التوقُّف طوال شهرين كاملين) ثم الاندفاع بقواته المدرَّعة شرقًا بعد بلوغها الأرض المفتوحة لاحتلال الإسكندرية، وكانت خطة روميل موضوعة على أساس القيام بهجوم تثبيتي على المواقع البريطانية في القطاع الشمالي (ما بين البحر المتوسط وتَبَّة علم نايل)، بينما يقوم فيلق البانزر الألماني والفيلق 20 الإيطالي الخفيف الحركة بعملية اختراق للمواقع البريطانية في القطاع الجنوبي (ما بين علم نايل وقارة الحميمات)، والتقدُّم شرقًا إلى الموقع الدفاعي على تَبَّة علم حلفا لاحتلاله ـ كان يعد أهم موقع دفاعي، وتعد التبة أعلى هيئة أرضية في الخط الدفاعي البريطاني بأكمله ـ، وكان على الفيلقين بعد ذلك الاندفاع في الثغرة ما بين علم نايل وعلم حلفا، والقيام بحركة التفاف إلى الشمال بغرض الوصول إلى الخط الحديدي والطريق الأسفلتي القريبين من البحر ليتم بذلك تطويق جميع القوات البريطانية في القطاع الشمالي، وقطع خط الرجعة عليها.

ولكن الجنرال مونتجومري عند تقديره للموقف توصَّل إلى الاستنتاج بأن روميل من المنتظر أن يكرِّر تكتيكاته الناجحة نفسها التي سبق له استخدامها في معركة الغزالة في برقة يوم 13 يونيو عام 1942، والتي أدَّت إلى هزيمة الجيش الثامن البريطاني، وفقده لقوته المدرعة، ثم انسحابه المذعور إلى العلمين، ووفقًا لذلك توقع مونتجومري أن يوجِّه روميل ضربته الرئيسية في القطاع الجنوبي من خط العلمين لاختراقه، ثم التقدم بعد ذلك شمالاً للوصول إلى البحر، وبذا يتم له طي الخط الدفاعي البريطاني من الجنوب إلى الشمال، وإرغام القوات المدرعة البريطانية على الدخول في معركة مع قوات البانزر الألمانية مستهدفًا تدميرها.

ونظراً لأهمية تَبَّة علم حلفا التي تعد أعلى هيئة أرضية في الخط الدفاعي بأكمله، ويمكن منها السيطرة على جميع الأراضي شمالاً حتى شاطئ البحر، وكذا على طريقي التقدُّم شرقها وغربها وعلى الأرض المفتوحة جنوبها، وبالنسبة لوقوعها خلف منتصف الخط الدفاعي على بعد حوالي 15 كم شرق علم نايل، لذا أصبحت تَبَّة علم حلفا هي مفتاح الخط الدفاعي في منطقة العلمين، وكان هذا ما حدا بمونتجومري إلى أن يقرر ضرورة احتلال هذه التبة الحيوية، والتي لا يمكن لقوات المحور تجاهلها في أثناء قيامها باختراق الموقع الدفاعي البريطاني، وعلى ذلك تم تخصيص الفرقة 44 المشاة لاحتلال هذه التبة، وتحصينها، والدفاع عنها.

وفي ليلة 30/ 31 أغسطس 1942، وفي ضوء القمر الساطع قام روميل بهجومه المنتظر بعد تحضيرات قوية من المدفعية والطيران، وفي الشمال ووفقًا للخطة الموضوعة قامت فرقتان إيطاليتان بهجوم تثبيتي على المواقع الدفاعية البريطانية في القطاع الشمالي، وفي القطاع الجنوبي تم فتح عدة ثغرات في حقول الألغام البريطانية اندفعت عبرها القوة المدرعة الرئيسية، وفي صباح يوم 31 أغسطس تقدَّمت الفرقتان 15 و21 بانزر في اتجاه تَبَّة علم حلفا، وتوقفت الفرقتان بعد وصولهما إلى جنوب التبة لإغراء القوات المدرَّعة البريطانية بالتقدم لملاقاتها في الأرض المفتوحة، ولكن هذه القوات وفقًا لخطة مونتجومري رفضت التخلي عن مواقعها الحصينة والتورط في القتال، وعلى ذلك استأنفت فرقتا البانزر تقدُّمهما، وشنتا هجومًا على مواقع الفرقة 44 بتبة علم حلفا، ولكن هجومهما باء بالفشل.

وفي صباح يوم أول سبتمبر أمر مونتجومري بتحرُّك الفرقة 10 المدرَّعة لسدِّ الثغرة الموجودة بين تبتي علم حلفا وعلم نايل، ولحماية الجنب الأيمن للفرقة أمر لواء من فرقة جنوب أفريقيا باحتلال تبة الرويسات، وعلى الرغم من الهجمات العنيفة التي شنها الفيلق الأفريقي على المواقع البريطانية بعد النجاح الأوَّلي لعملية الاختراق فقد فشل في استكمال الخطة، والقيام بعملية الالتفاف في اتجاه الشمال لشدة وقوة المقاومة البريطانية التي واجهته.

وتبعًا لذلك بادر مونتجومري بوضع خطة الهجوم المضاد التي تضمَّنت تكليف الفيلق 13 بالقيام بهذا الهجوم بهدف إغلاق الثغرات المفتوحة في حقول الألغام، بينما يبقى الفيلق 30 في الاحتياط.

وقد لعب الطيران البريطاني الذي كانت له السيادة الجوية على أرض المعركة دوراً رئيسيًّا في تحطيم هجمات قوات المحور منذ اليوم الأول للمعركة، وقد تسبَّبت هجماته الجوية المركَّزة على الأرتال الإدارية في حرمان قوات المحور من معظم المؤن والإمدادات التي كانت في أشد الحاجة إليها، كما وجَّه الطيران البريطاني ضربات عنيفة ضد الثغرات ورؤوس الكباري التي قامت قوات المحور بفتحها في حقول الألغام.

وفي يوم 3 سبتمبر حاولت الفرقة النيوزيلندية (البريطانية) إغلاق الثغرات الألمانية في حقول الألغام عن طريق الهجمات القوية التي وجهتها ضدها، لكن الفرقة 90 الخفيفة الألمانية نجحت في صد هجماتها، وقامت فجر يوم 4 سبتمبر بشنِّ هجوم مضاد عنيف كبَّد الفرقة النيوزيلندية خسائر فادحة، وخلال يومي 5 و6 سبتمبر تم انسحاب قوات المحور تحت ستر ستارة قوية من المدافع عيار 88مم المضادة للدبابات، وعلى الرغم من فشل الهجوم وانسحاب قوات المحور غربًا للعودة إلى خطها الدفاعي فإن الجنرال مونتجومري لم يحاول مطاردة القوات المنسحبة، أو الضغط عليها ليكيل لها ضربة حاسمة تؤدي إلى تدميرها.

وكانت علم معركة حلفا هي الجولة الأخيرة في مرحلة الاستعداد الطويلة قبل معركة العلمين، وقد استفاد البريطانيون من هذه المعركة فوائد لا حصر لها، فقد كانت بمثابة حقل تجارب للنظريات الجديدة التي وضعها مونتجومري قبل المعركة، وقد أسهمت في رفع الروح المعنوية في صفوف الجيش الثامن، واستعادة ثقته في قيادته الجديدة، غير أن خطة مونتجومري كانت موضع النقد من العديد من المحلِّلين والخبراء العسكريين على أساس أنها كانت خطة دفاعية، ولذا لم يستطع استغلال فرصة اهتزاز موقف قوات

المحور بعد فشل هجومها لكي يوجِّه إليها ضربة قاضية يتم بها القضاء عليها، وبانتهاء معركة علم حلفا أخذ مونتجومري في إعداد قواته استعداداً للمعركة الفاصلة القادمة.

هذا ولم يتمكَّن الفيلد مارشال روميل في معركة علم حلفا من مواصلة سلسلة انتصاراته الباهرة السابقة التي أكسبته مجداً حربيًّا عظيمًا، وشهرة واسعة النطاق نتيجة لعوامل معاكسة يمكن تلخيصها فيما يلي:

§ كانت القوات البريطانية تحتل مواقع دفاعية حصينة في خط العلمين لا يمكن الالتفاف حولها وتطويقها؛ لانحصارها بين مانعين طبيعيين: البحر المتوسط ومنخفض القطارة، ولم يكن في الإمكان إحراز المفاجأة لقرب الدفاعات البريطانية والألمانية من بعضها، ولإحراز النجاح في مثل هذا الموقف كان الأمر يستلزم إحراز قوات المحور التفوُّق في العدد وفي الأسلحة والمعدات؛ ونظراً لأن البريطانيين هم الذين كان لديهم التفوُّق الساحق في كل هذه المجالات لذا كان من الصعب على قوات المحور تنفيذ خطة روميل التي كانت تقضي باختراق المواقع البريطانية من الغرب إلى الشرق، ثم الاتجاه شمالاً في اتجاه البحر لطي الخط الدفاعي البريطاني، وقطع خط الرجعة على القوات البريطانية، وفضلاً عن ذلك فقد اصطدمت قوات المحور أثناء المعركة بفرق قوية متماسكة، وليست ألوية مبعثرة ضعيفة كما كان عليه الحال قبل تولِّي مونتجومري زمام القيادة.

§ نظراً لإحراز الطيران البريطاني السيادة الجوية على أرض المعركة لذا أسهم بدور رئيسي في تحطيم هجوم قوات المحور، وفي عرقلة وصول القوافل الإدارية إليها، فضلاً عن خفض الروح المعنوية في صفوفها.

§ إدراك الجنرال مونتجومري للتكتيكات التي يتَّبعها روميل، والتي انتصر بفضلها في معاركه السابقة؛ لذا وضع خطة المعركة على أساس عدم إتاحة الفرصة له لتكرارها خلال معركة علم حلفا، ولهذا اقتصر اشتباك الدبابات البريطانية في مواقع ضرب

نار ممهَّدة ومحصَّنة، وعدم تورَّطها في معركة مع فرق البانزر على أرض مفتوحة حتى لا تُفاجَأ بالستائر الألمانية المعهودة المضادة للدبابات التي سبق لها تدمير القوات المدرَّعة البريطانية في معركة الغزالة يوم 13 يونيو عام 1942، كما كانت تعليمات مونتجومري تقضي بعدم تحرُّك مدرعاته من مواقعها لمطاردة قوات المحور إذا بدأت في الانسحاب حتى لا تتوافر لروميل الفرصة للقضاء عليها.

§ كان روميل في تلك الفترة يعاني من التهاب في الأنف، وتضخُّم في الكبد، وبلغ به المرض إلى الحد الذي جعله غير قادر على مغادرة عربته في أثناء المعركة، وقد تسبَّب ذلك في عجزه عن القيام باستطلاعه الشخصي المعهود لميدان القتال، ومن إصداره الأوامر الحاسمة في التوقيت المناسب، مما كان يؤدي في معاركه السابقة ـ بفضل عبقريته وبُعد نظره ـ إلى تحويل مجرى القتال، وانتزاع النصر من براثن الهزيمة.

لقاء هتلر مع روميل

بعد ثلاثة أسابيع من انتهاء معركة حلفا اضطر روميل لأول مرة في حياته ـ فيما عدا عندما أصيب بجراح ـ إلى إبلاغ القيادة العامة الألمانية في برلين عن مرضه الذي أصبح يعاني منه أشد المعاناة للعلاج، وقبل أن يدخل المستشفى في "سمرنج" استدعاه الزعيم الألماني هتلر للقائه في مركز قيادته في برلين، وفي أثناء الحديث ذكر روميل أن الفيلق الأفريقي برغم وقوفه أمام الإسكندرية فإنه عاجز عن دفع ذلك الباب، وفتحه؛ لعدم وصول الإمدادات والمؤن إليه، ولسوء موقفه الإداري بسبب النقص الحاد والمزمن في البترول (كان تعرض البريطانيين لناقلات بترول المحور المتجهة من الموانئ الإيطالية إلى الموانئ الليبية مستمراً بسبب السيطرة البريطانية الجوية والبحرية على الجزء الأوسط من البحر المتوسط، وقد ارتفع معدل إغراق هذه الناقلات في تلك الفترة إلى حد لم يُسبق له مثيل من قبل)، ويبدو أن هتلر قد اقتنع بوجهة نظر روميل، فقد رد عليه قائلاً: "لا تجزع أنا مصمِّم على أن أعطي لأفريقيا كل ما تريده من عون لا تخف فسوف تستولي على الإسكندرية".

واسترسل هتلر في حديثه، فأخذ يروي لروميل ما يتم تصنيعه وقتئذ من مئات القوارب الصغيرة ذات الغاطس الضحل التي تشبه قوارب الإنزال البحرية، والتي يتم تسليح كل منها بمدفعين مضادين للدبابات من عيار 88مم، وأوضح هتلر لروميل أن هذه القوارب سوف تكون نظراً لحجمها أهدافًا صعبة للغاية بالنسبة للطائرات البريطانية.

وبعد تحميل هذه القوارب بالبترول سيكون من السهل ـ كما ذكر هتلر ـ تسلُّلها ليلاً إلى الشاطئ الأفريقي، وبذا يمكن حل مشكلة البترول حلاً جذريًّا، وأكد هتلر لروميل أنه قرَّر تخصيص مائتين من هذه القوارب على الفور لنقل البترول والإمدادات إلى قواته في شمال أفريقيا (جبهة العلمين)، وقد أوضح روميل فيما بعد أنه لم يشاهد أي قارب من هذه القوارب، ولم يصله أي واحد منها، وعلَّل ذلك أن هتلر كان كثيراً ما يطلق لخياله العنان.

وعقب المقابلة اصطحب هتلر معه روميل في جولة شاهد فيها الطراز الجديد الذي تقرَّر تصنيعه على نطاق واسع للدبابة الألمانية (النمر)، ولمدفع الهاون من العيار الكبير الذي تم إنتاجه، وقد صدرت التعليمات بأن يكون ميدان شمال أفريقيا له الأسبقية الأولى في التوزيع بالنسبة لها، وأوضح هتلر لروميل أن كميات ضخمة من مدافع الهاون قد تقرَّر إرسالها فوراً إلى أفريقيا عن طريق النقل الجوي الذي يجب أن يكرِّس كل إمكاناته في النقل لهذه المهمة، وقد شعر روميل بعد لقاء (الفوهرر) ورؤيته بنفسه للدبابة والهاون الجديدين بمزيد من التفاؤل والأمل في المستقبل، فقد صدق بالطبع الوعود التي بذلها الزعيم، خاصة أن هتلر أدلى بحديث لمراسل أجنبي في برلين في الثالث من أكتوبر أكَّد فيه أن الجيش الألماني سوف يكون قريبًا في الإسكندرية.

وفي أثناء هذا اللقاء مع هتلر تقرَّر عدم عودة روميل إلى قيادته في شمال أفريقيا، فقد اعتزم هتلر بسبب قلقه على صحته أن يسند إليه قيادة مجموعة أحد الجيوش الألمانية في

أوكرانيا بالاتحاد السوفيتي على اعتبار أن تغيير الجو سوف يفيد صحته، وعلى أن يحل محله في منصبه في قيادة الفيلق الأفريقي الجنرال ستيوم.

ولكن الشكوك لم تلبث أن ساورت روميل بعد مضي حوالي أسبوعين على لقائه مع هتلر، وفي أثناء وجوده بمستشفى سمرنج الذي كان يتلقى فيه العلاج، وقد أَسَرَّ بذلك لزوجته، وتساءل أمامها عما إذا كان هدف هتلر من وعوده له بشأن الفيلق الأفريقي هو مجرد تهدئته؟ وأبدى لها في النهاية عدم تصديقه لهذه الوعود الخيالية، ولا شك في أن القيادة العليا الألمانية قد أضاعت أثمن فرصة سنحت لها لإحراز نصر ساحق في الشرق الأوسط بعدم استجابتها للمطالب القليلة التي كان الفيلد مارشال روميل في أشد الحاجة إليها بعد وصوله إلى خط العلمين لمواصلة زحفه صوب الإسكندرية، وقد شرح روميل هذه الحقيقة بمرارة في بعض أوراقه السرية التي عُثِرَ عليها بعد وفاته، فقال: "استمرت القيادة العليا الألمانية على الخطة التي اتَّبعتها في تجاهل المسرح الأفريقي، فلم يقدِّروا أننا في الشرق الأوسط كنا قادرين بقليل من الوسائل على إحراز قدر من النجاح يفوق كثيراً من الناحيتين الإستراتيجية والاقتصادية ما كانوا يحلمون به من انتصار في معارك منحنى نهر الدون على الجبهة الروسية التي دفعوا فيها بمئات الفرق الألمانية دون جدوى. كان أمامنا أرض مليئة بثروات هائلة كانت تكفي للتغلب على كل متاعبنا في البترول. إن الإمدادات القليلة التي كان يحتاج إليها جيشي لم تكن تزيد على عدد قليل من الفرق الميكانيكية، وكانت تكفي لإلحاق هزيمة كاملة بجميع القوات البريطانية في الشرق الأوسط، ولكن للأسف لم تتم الاستجابة لمطالبنا بإمدادنا ببعض التشكيلات الإضافية".